جَذرُ (حـ . ر . ب)

دِراسةٌ في الدلالةِ المُعجَمية والسّياقِيةِ في ضوءِ الاستعمالِ القرآني

د . فِراس عبدالعزيز عبدالقادر(*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فمما لا شك فيه أنّ القرآن الكريم نص لغوي معجز في مفرداته وتركيبه وأساليبه، فهو نسج محكم متقن، وللمفردة فيه إيحاءات متنوعة، ودلالات ملوّنة، تستشفُّ معانيها بطول التأمل وأعمال الفكر، ولاغرو في ذلك فالكلام كلام الله – عز وجل -، الذي تحدّى به العرب والعجم – إنساً وجناً أنْ يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ومن جملة مفرداته لفظ "الحرب"، الذي اتخذ استعماله في النص القرآني معاني ودلالات، لا تقتصر على معناه اللغوي فحسب. مما يستدعي التمكث عنده؛ لتتبيّن لنا دقة المفردة القرآنية في السياق القرآني. ولعل من المفيد قبل الولوج في البحث أن نعرّج على مفهوم "الحرب" في اللغة والاصطلاح، فجذر "حـ . ر . ب" له أصول ثلاثة: الأول السلب، والثاني الدويب والثالث بعض المجالس[1]. وقد كشف الخليل (ت 175هـ) عن دلالة الحرب في اللغة بقوله[2]: (الحرب نقيض السلم، تؤنث وتذكر. ورجل محرب: شجاع، وفلان حرب فلان، أي

(*) قسم اللغة العربية - كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) =: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: 48/2 (مادة حرب).

(2) العين، الخليل بن احمد: 3/ 213 ـ 214 (مادة حرب).

يحاربه،وحرب فلان حرباً أخذ ماله، فهو حرب محروب حريب. وحريبة الرجل ما له الذي يعيش به. وقد تعطي معنى المعصية والقتل في القرآن الكريم..) وقد أشار الراغب الأصفهاني (ت 406هـ) إلى المعنى نفسه بقوله[3]: (الحرب: السلب في الحرب، ثم قد يُسمى كل حربٍ حرباً، والحرب مشتقة من الحرب، وقد حرب فهو حريب – أي سليب، والتحريب إثارة الحرب...).

ويقال أيضا: حاربه محاربة وحرباً: قاتله، وهم يحاربون الله أي يخالفونه ويعصون أمره[4].

والحرب بوصفه مصطلحاً ومفهوماً هو صراع مسلح بين دولتين أو فريقين، الغرض منه الدفاع عن الحقوق ومصالح الدول المحاربة[5]. وهذه الحرب ينشأ عنها العداء والبغضاء، وتولد الشحناء؛ مما يفضي في عاقبة الأمر إلى سفك الدماء. والحرب قد تكون عادلة أو ظالمة، مشروعة أو غير مشروعة، لذا نرى انه ثمة خلط بينه وبين مصطلح الجهاد، إذ فرّق الاستعمال القرآني بين المصطلحين، فلم يعد "الحرب" مصطلحاً إسلاميا، مستبدلاً مصطلح الجهاد بمصطلح الحرب، الذي لا يكون إلاّ حقاً مشروعاً عادلاً لا ظلم فيه، فهو (لا يطلق إلاّ على الخلاف في المعتقد. اما الحرب فغير ذلك..)[6].

ونظرة فاحصة في تراثنا اللغوي الذي وصل إلينا في عصر ما قبل الإسلام، ترينا ان لفظ الحرب الذي ورد في أشعارهم ومدوناتهم، جاءت

(3) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني / 160.

(4) =: المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية) / 142.

(5) =: فلسفة الجهاد في الإسلام، عبدالحافظ عبد ربه / 41.

(6) الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام، ظافر القاسمي / 93.

بمعنى القتال والعداء المشروع وغير المشروع، ومما ورد شاهداً على ذلك قول زهير في معلقته

وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم[7]

وقد سَمَّتِ العرب في جاهليتها بعض أيامها بحروب خاضتها كـ "حرب البسوس" و "حرب داحس والغبراء" التي دامت سنين عديدة، كان ثمرتها الدمار والقتل والفقر.

وإذا انتقلنا إلى مجال البحث عن لفظ "الحرب" في القرآن الكريم، نجد أنّ اللفظ قد ورد في ستة مواضع منه[8] جميعها ورد في السور المدنية، فلا نلقي ذكراً له في السور المكية، انسجاماً مع الحياة الإسلامية الجديدة في المدينة المنورة، وتلائماً مع الفئات غير المسلمة أعني الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب، ولا سيما اليهود وقد تتبع علماء الوجوه والنظائر معاني اللفظ في الاستعمال القرآني، فأثبت له مقاتل بن سليمان (ت 150هـ) – وهارون بن موسى (ت 170هـ) معنيين: الأول الحرب بمعنى الكفر والعصيان، والثاني العرب بمعنى القتال[9]. وزاد الفيروز آبادي عليهما معنى ثالثاً هو الحرب بمعنى المخالفة (الخلاف)[10]. وبعد هذا العرض الموجز نقف عند لفظ الحرب ودلالاته، مستندين بأداء المفسرين وعلماء اللغة.

(7) =: شرح المعلقات السبع، الزوزني / 111.

(8) =: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي / 196.

(9) =: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان / 290، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، هارون بن موسى / 375.

(10) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي: 444/2.

الحرب بمعنى القتال

ورد (الحرب) بمعنى القتال في ثلاثة مواضع في النص القرآني، جاء الأول متمثلا بقوله تعالى ((... كُلَّمَا أوقَدُوا نَاراً لِلْحَربِ أطفأها الله ويَسعَون في الأرض فساداً...)) المائدة:64.

سبقت الآية في معرض الحديث عن اليهود، وما اتصفوا به من حقد دفين، وغدر اصفر وفساد في الأرض، ولا يخفى ما في الآية من دلالة التقريع بهم، والاستهانة بشأنهم. لأنهم كلما أشعلوا فتيلاً للحرب أطفأها الله رداً لكيدهم. والحرب مقصود به القتال بعينه[11]. واختلف في المخصوصين بالخطاب في الآية فقيل هم أسلاف اليهود، وقيل هم اليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم، وحاولوا قتله، ومن يأتي بعدهم، وعلى الرأي الثاني يكون اخباراً بالغيب. وبشارة للمسلمين[12]. والبادي لنا – والله اعلم – ان اللفظ عام في اليهود من أولهم وحتى أخرهم. ومن بديع النظم القرآني تصدر الآية بالظرف "كلّما" المفيد تكرار الفعل، وهي مركبة من "كل" التي تفيد معنى الاستغراق و "ما" المصدرية الظرفية، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية الماضية، وقد يفيد المضي فيها زمن الاستقبال[13]. إنّ هذا الظرف المتكرر جعل نصر اليهود مستحيلاً، بدليل جواب الشرط المتصدر بالفعل الماضي "أطفأها الله"، والتعبير عن المستقبل بالزمن الماضي يفيد تحقيق وقوع الفعل، وتأكيد حصوله[14]. ويتمثل في الآية فن بلاغي

(11) =: م.ن: ص . ن.

(12) =: التسهيل لعلوم التنزيل، محمد الجزي: 173/1.

(13) =: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، محمد حسن: 2/ 806.

(14) =: معاني الفعل الماضي في القرآن الكريم، حامد عبدالقادر (بحث منشور) / 70.

باستعارة لفظ إيقاد النار للحرب، وجعل أبو عبيد الآية من المجاز[15]. إذ لا نار للحرب حقيقة، وانما شبهت بالنار، لأنها تآكل أهلها كما تآكل النار حطبها[16]. فـ(المحارب يوقد النار في موضع عالٍ ليجتمع إليه أنصاره[17]. والجار والمجرور في قوله "للحرب" اما صلة لـ "أوقدوا"، أو متعلق بمحذوف وقع صفة لـ " ناراً"

أي كائنة للحرب[18]. ويلحظ تنكير لفظ "ناراً" إذ أفاد معنى العموم والشمول، أي أيّ نار كانت فهي مطفيّة. ومجيء الفاعل بالاسم الجليل (الله)، لافاد ترويع المخاطبين، وتربية المهابة فيهم. والتعبير بالجملة الفعلية المعطوفة (يسعون في الأرض...) بالفعل المضارع دلالة على تجدّد سعيهم بالإفساد في الأرض أي (سجيتهم انهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته)[19].

أما الموضع الثاني فورد في قوله تعالى: (فإمَّا تثقفنّهم في الحَربِ فشَرِّد بهم من خلفهم لعلهم يذكّرون) الأنفال: 57. الخطاب مُوَجَّهٌ للرسول صلى الله عليه وسلم في أمره مع بني قريضة، وعهدهم الذي نقضوه معه[20]. ولغة الخطاب فيه تحريض للرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه على التنكيل بهم، والآية تعريض للذين يأتون بعدهم، ليكونوا عبرة وعظة لكل ناقض عهد. ومعنى الحرب في الآية القتال. ويلحظ افتتاح الجملة بـ (إمّا) الشرطية، المركبة من (ان) الشرطية، (ما) المؤكدة، وأكد فعل الشرط (تثقفنّهم) بالنون إذ دخلت (توكيداً لما دخلت ما؛ هذا

(15) =: مجاز القرآن، أبو عبيد: 1/ 171.

(16) صفوة التفاسير، الصابوني: 1/ 354.

(17) =:نظم الدور، البقاعي: 222/6.

(18) =: إرشاد العقل السليم، أبو السعود: 44/2.

(19) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 2/ 606.

(20) =: تنوير المقباس، الفيروز آبادي / 184.

قول البصريين وقال الكوفيون تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع (إمَّا) في المجازاة للفرق بين المجازات والتخيير)[21]. واختلف في معنى الثقف فقيل اما (تثقفنّهم) تأسرهم وتجعلهم في ثقاف، أو تلقاهم بحال ضعف، تقدر عليهم فيها وتغلبهم وهذا لازم من اللفظ؛ لقوله (في الحرب)، وقيل اما تصادفنهم وتلقاهم في الحرب. والأول أولى لارتباطه بالآية[22] واصل الثقف: الحذف في إدراك الشيء وفعله، يقال ثقفت كذا – إذا أدركته ببصرك لحذف في النظر، ثم استعير تجوزاً في الإدراك، وان لم تكن معه ثقافة[23]. قوله (في الحرب) أفادت (في) الدلالة على الظرفية المكانية، فَخَصَّ التشريد في الحرب لا في غيره. وورد جواب الشرط مقترناً بالفاء (فَشَرِّد)؛ إذ فعله أمر حقيقي يقتضي وجوب القيام به واصل التشريد مأخوذ من شرد البعير، يقال شردتُ فلانا في البلاد أي فعلت به فعله تشرد غيره ان يفعل فعله – كقولك نكلتُ به، والمعنى اجعلهم نكالاً ممن يعرض لك بعدهم[24]. ومجي الفعل بصيغة التضعيف (فَعِّلْ) للدلالة على المبالغة في فعل التشريد.

وجاء الحرب بمعنى القتال في موضع ثالث تمثل في قوله تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرّقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإما منّاً بعدُ وإما فداءً حتى تَضَعَ الحَرْبُ أوزَارها....) محمد:4. يبدو معنى القتال في لفظ الحرب جلياً واضحاً، إذ جاءت الآية ترغيباً للمؤمنين في القتال يوم بدر، ويلحظ في تركيب جملة (حتى تضع الحرب أوزارها) مجيء الحرف (حتى) مقترناً بوضع الحرب ؛ إذ أفاد انتهاء الغاية والتعليل معاً، والمعنى (فشدّوا الوثاق حتى تؤمنوا أو تضعوا

(21) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 8/ 30، و +: الجنى الداني / 490.

(22) م . ن: ص . ن.

(23) =: المفردات / 107، لسان العرب، ابن منظور: 9/ 19.

(24) =: المفردات / 378.

السلاح)[25]. اما وجه التعليل فجاء على معنى (لأجل ان تضع الحرب أوزارها)[26]. وثمة ملحظ بلاغي تمثل بإسناد وضع الأوزار للحرب على وجه الاستعارة؛ فالأوزار ما يحمله الإنسان على ظهره، وهذه الاستعارة أفادت تفخيماً للحرب وتعظيماً لشأنها[27]. واقتران الأوزار بالحرب – غالبا – اقتران تلازمي، يقال: وضعت الحرب أوزارها، للأوزار معانٍ، قيل هي أثقال الحرب، وقيل آثامها وهو ترك الشرك الحاصل من المشركين[28]. وقيل هي السلاح، أي: حتى تضعوا السلاح فتأمنوا[29]. وعلل الزمخشري تسميتها بالأوزار (لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكأنّها تحملها وتستقل بها، فإذا انقضت فكأنها وضعتها)[30].

الحرب بمعنى الكفر والعصيان

ورد لفظ الحرب بمعنى الكفر والعصيان في الاستعمال القرآني في موضعين، جاء الأول متمثلا في قوله تعالى: (إنَّما جزاء الذَّينَ يُحاربونَ اللهَ ورَسولَهُ ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلّوا ويصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خِلافٍ أو ينفوا مِنَ الأرض...) المائدة: 33.

سياق الآية ترهيب للمحاربين لله ورسوله، وتخويف لهم من جزائه وعقابه في الدنيا والآخرة. ولا يخفى ما في النص الكريم من تغليط جعل ارتكاب نهيه تعالى

(25) =: الجامع لأحكام القرآن: 16/ 229.

(26) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: 11 /82.

(27) =: كتاب الصناعتين، العسكري / 297، النكت في إعجاز القرآن، الرماني / 9.

(28) =: تفسير الكشاف، الزمخشري / 1018.

(29) =: الجامع لأحكام القرآن: 16 / 229.

(30) تفسير الكشاف / 1018.

محاربة[31]. وحمل أبو عبيدة الحرب في الآية على معنى الكفر. وقد أشار الخليل من قبل على ان الحرب قد يأتي بمعنى المعصية في القرآن. واختلف المفسرون في تأويل المحاربة لله عز وجل في الآية، لانّ المحاربة معه سبحانه وتعالى غير ممكنة ولا واقعة، فكيف يحارب الله[32]. وقدّر العلماء في الآية حذفاً للمضاف وتقديره: يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل يحاربون عباده وأولياءه، والأول ضعيف؛ لان الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر بعد لفظ الجلالة (الله) معطوفاً عليه[33]. ووجّه سعيد بن جبير محارة الله ورسوله في الآية على الكفر بعد الإسلام، في حين ذهب مقاتل إلى أنَّ المحاربة أراد بها الشرك[34]. نزلت الآية في العرينين ارتدّوا عن الإسلام، إذ قتلوا راعياً واستاقوا إبله[35]. ومن بديع نظم الآية تصدّرها بأداة الحصر (إنـّما)؛ قصداً لاثبات الحكم وتوكيده، فالحصر (يفيد تأكيد النسبة، والتأكيد يصلح ان يعد في إمارات وجوب الغل المعدود بعضها في أصول الفقه؛ لأنه يجعل الحكم جازماً)[36]، ومما يلحظ مجيء المبتدأ مضافاً إلى الاسم الموصول الظاهر (جزاء) (الذين)، وكان الأصل مجيء المضاف إليه مضمراً (جزاؤهم) وعلة ذلك إرادة تعليف الحكم بالوصف والتعميم[37] فضلا عما في الاسم الموصول وصلته من دلالة تحقير المخصوصين بالخطاب والاستهانة بهم. وورد لفظ الحرب

(31) المحرر الوجيز، ابن عطية: 4 / 427.

(32) التفسير الكبير، الرازي: 11/ 220.

(33) =: التسهيل: 1 / 175.

(34) =: زاد المسير، ابن الجوزي: 2/ 345.

(35) لباب النقول، السيوطي / 91.

(36) تفسير التحرير والتنوير: 6 /181.

(37) =: نظم الدور: 6/ 129.

بصيغة الفعل المضارع "يحاربون"، لما يفيده الفعل المضارع من تجدد حدوث فعل محاربتهم لله ورسوله. ومن بلاغة العطف، عطف الرسول صلى الله عليه وسلم المضاف إلى ضمير الغيبة العائد على الاسم الجليل، عطفه على (الله)، اشعاراً بانّ محاربة الرسول هي محاربة لله تعالى، فالحكم واحد لا تمايز بينهما.

اما الموضع القرآني الثاني الذي ورد فيه لفظ الحرب بمعنى الكفر والعصيان، فجاء في قوله تعالى: (والذّينَ اتخـّذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله...) التوبة: 107

نزلت الآية في فئة من المنافقين كانوا اثني عشر رجلاً، بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء، مضرة للمؤمنين وكفراً وتفريقاً، وارصاداً لمن حارب الله ورسوله وهو أبو عامر الراهب؛ لأنه حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأحزاب، وحاربه مع ثقيف وهوازن[38]. ذكر ابن عباس ان معنى قوله (حارب الله ورسوله) كفر بالله ورسوله[39]. وجملة (والذين اتخذوا مسجداً....) معطوفة على جملة (وآخرون مرجون...)، وقيل الجملة استئنائية وخبر المبتدأ (الذين) محذوف[40] وقيل نصب الاسم الموصول على الذم[41]. اما وجه نصب قوله (ضراراً) وما عطف عليه (كفروا، تفريقاً) فهو إما على انه مفعول ثان لاتخذوا، وقد قام المصدر مقام اسم الفاعل والتقدير: مضراً مفترقاً، وامّا انه مفعول لأجله[42]. وافتتاح الجملة بالاسم الموصول وصلته دل على ذمهم والتحقير من شأنهم. ومجيء

(38) =: لباب النقول / 124.

(39) =: تنوير المقباس / 204.

(40) =: البيان في غريب إعراب القرآن، ابن الانباري: 1/ 405.

(41) =: إرشاد العقل السليم: 2/ 296.

(42) =: إملاء ما منّ به الرحمن، العكبري: 2/ 23.

لفظ (حارب) بصيغة الفعل الماضي، حَقّق فعلهم الشنيع بمحاربة الله ورسوله، وعصيانه والكفر به. والتعبير بالاسم الجليل (الله) الواقع مفعولا به، أفاد ترهيب السامعين وترويعهم. والجار والمجرور (من قبل) متعلق بمحارب، أو متعلق باتخذوا، أوزارها قبل اتخاذهم لهذا المسجد بزمن قريب، إذ محاربتهم لم تكن مستغرقة للزمن الماضي فادخل الجار والمجرور (من قبل)[43].

الحَربُ بمعنى العذاب

ورد هذا المعنى في موضع متفرد في النص القرآني الكريم، تمثَّل ذلك في قوله تعالى: (فانْ لم تفعلوا فأذنوا بحَربٍ من الله ورسولهِ ...) البقرة:279.

جاءت الآية في معرض الحديث عن الربا وحكمه في الإسلام، وسياق الآية تهديد ووعيد لفاعله، وعذاب شديد لآكليه. يقول ابن القيم[44] (الآية تضمنت معنى الوعيد، وهي محاربة المرابي لله ورسوله، وقد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعي بالفساد ...). وحمل ابن عباس (رضي الله عنه) الحرب على العذاب إذ يقول[45] (فاستعدوا للعذاب من الله في الآخرة بالنار، والعذاب من رسوله في الدنيا بالسيف). في حين ذهب هارون بن موسى إلى ان معنى الحرب في الآية هو الكفر[46]. ووجه الفيروز آبادي معنى الحرب في الآية على المخالفة (الخلاف) لأمر الله ورسوله[47]. وثمة رأي آخر

(43) =: نظم الدرر: 19 / 16 ـ 17.

(44) التفسير القيم، ابن القيم: 176/1.

(45) تنوير المقياس / 47.

(46) =: الوجوه والنظائر/375.

(47) =: بصائر ذوي التمييز: 2/ 444

حمل محاربة الله ورسوله على العداء والخصام، لأحداث الاقتتال والمواجهة العسكرية[48]. والذي يبدو والله اعلم-أن معنى الحرب – ولاسيما في هذا الموضع – هو العذاب؛ إذ سياق النص يوحي بوقوع عذاب الله ورسوله للمرابي، ومحاربة الله للعبد عذابه وجزاؤه بالعقاب حال مخالفته الشرع. وقد اختلف في المخاطبين فقيل الخطاب موجه للمؤمنين، بدليل قوله تعالى قبلاً (يا أيها الذين آمنوا ...) البقرة: 278. وقيل الخطاب موجه للكافرين المصرّين على فعل الربا، والمقرّين به[49]. ومما يلحظ في الآية تصدّرها بفعل الايذان بالحرب والمعنى: أيقنوا بحربه تعالى وحرب رسوله. يقال: آذنتك بحرب، فأذنت به. وجي بلفظ الحرب منكراً، لما في التفكير من التهويل بشأن الحرب، والترهيب منه. أي (بنوع من الحرب عظيم لا يغادر قدره كائن من عدا الله.)[50]

ولاسيما ان هذه الحرب من الله تعالى، الذي له كمال القدرة وعظيم السلطان. وقد ألمح الزمخشري إلى الفرق بين قوله (بحربٍ من الله) وقوله (بحرب الله) بقوله[51] (هذا أبلغ؛ لان المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله). فالحرب (بأذنه على سبيل المجاز والإسناد إلى رسوله؛ لأنه المبلغ والمباشر[52] وتلازم العطف بالواو بين الاسم الجليل(الله) و(رسوله)، أفاد تكريم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وعلو منزلته عند الله عز وجل، فمن حارب رسول الله فقد حارب الله تعالى.

(48) في دائرة النقد اللغوي، يوسف نمر ذياب / 28.

(49) =: التفسير الكبير: 108/7.

(50) صفوة التفاسير: 176/1.

(51) تفسير الكشاف/154

(52) تفسير التحرير والتنوير: 94/3.

Abstract

The research entitled the Root "H. R. B". a study in the contextual and lexical semantics in the light of the Quranic use

Dr. Firas Abd Al-Azeez [*]

.

A lexis of the Qlourous Quran, the inaccessible in its lexis, syntax and style. A lexis has various contextual meanings discovered through the reading of its text. A careful reading is needed.

This research is concerned in the lexis "Harb" "war" in the Quranic use.

A complete lexical analysis is done on the lexis and then an attempt to discover its meanings in the Qlourous Quran.

The lexis appears in six places in Quran, all of them are "eladania". Three meaning were discovered. War means "fight" in three places and "contempt" in two places and finally it means "suffering" in one place.

(*) College of Arts / University of Mosul.